من أوراق موسم أصيلة الدولي الخامس عشر
ندوة الهوية والتنوع والأمن الثقافي
جامعة المعتمد بن عباد الصيفية (الدورة ٢٨) ١ ـ ٢ يوليو(تموز) ٢٠١٣

هوية الما ـ بين أو في البحث عن هوية للمهاجر

أحمد المديني

ـ المغرب ـ

القسم الأول:

١ـ يولد الكائن محمّلا منذ نعومة أظفاره بالأعباء، تثقل كاهله الصغير، ثم وهو يكبر تزداد أعباؤه، لم يتجّشمها بالضرورة، ولا بإمكانه أن يتنكبها، أو يتخفّف من وِزرها أنّى وحيث يشاء. تحسب هذا فِعل القدر، أو صورةً منعكسة أخرى لأسطورة سيزيف اليونانية الشهيرة.

يولد هذا الكائن، أيّا كان انتماؤه الجغرافي والسلالي، شبهَ كامل، ناجزٍ، كتمثال انتهى نحّاتُه منه توّا، وها هو معروض، مثلا، في متحف رودان، خلا ما يلحق به نموا جسديا طبيعيا، وما يشرع في اكتسابه داخل محيطه العائلي والاجتماعي، رغم أنه بدوره ناجز ومُهيأ سلفا، له ولسواه. يحمل من البداية في وجهه ملامح أبَوَيْه، وفق الجينات الطبيعية وأثرها. يتلقى اسما اختاره له هذان الأبوان وفق ميولهما، وغالبا رغبةً في تخليد أو ديمومة إسم لجدٍّ أو جدة، ليصبح وقد كَبُر، وهو يفترض أنه كائن مستقل بذاته، مجرد ذكرى وأيقونة لحفظ الماضي (العريق) ينبغي للحاضر(الوجه والإسم الحاضر، الحي) أن ينسحق له ويذوب فيه. ليس أفضل من الاستشهاد بما كتبه جاك لاكان في هذا المعنى:" إن الإنسان، وقبل ولادته، وأبعد من مماته، مأخوذ في سلسلة رمزية، هي التي صنعت صلة النسب، قبل أن يتدخل التاريخ هنا".

٢ـ يولد الكائن، لنُسمِّه الإنسان(س)، وترونني أتحفظ، أعني أتردد في نعته بالمواطن لأن للمواطنة

الحق بالشروط الواجب توفرها لتصبح التسمية والصفة قابلتين للحمل، متحصلتين على معناها وجوبا؛ لهذه المواطنة إلزامات يصعب توفرها كما يجب، ويفترض تحققها في ما لو أردت أن أتحدث عن كائن في بلاد، وطن كالمغرب؛ وإذن يولد هذا الإنسان المغربي وهو يرتدي جلابيب عدة، ما همّ الفصل الذي وُلِد فيه:

٢ـ١جلبابُ والديه، بنَسبِهما العائلي، وأوشامهما وأوصابهما أيضا ،لا خيار له في إرثهما، ولو افترضنا جدلا أنه أراد تحت تأثير (لعنة) ما أن ينكر هذا النسب، أو ينسلخ منه، فإن (لعنته) ستلاحقه إلى القبر، ليُكتب فوق شاهِدته، فضلا عن أن أيّ مديح سيُكال له، إن لم يكن جامّ غضب يسقط عليه، يعودان في آخر المطاف إلى عائلته، إلى سلالته، تسبقه، وتمتد فيه، وتنتقل كالعدوى منه إلى خلَفه الطبيعي إن وُجِد. وإنّ أكبر عقاب، أسوأه، يمكن أن يناله هذا الإنسان المتسلسل هو تعرضه ل(سُخط) الوالدين،لا يعادله مرتبة في الانكار والانسلاخ عن كل شيء، إلا مرتدٌّ عن دينه، أو من سخط عليه (المخزن) أي منظومة الحكم في المغرب برموزها العليا.

٢ـ٢الجلباب الثاني، هو انتماؤه الحتمي، بحكم مسقط الرأس، وتبعا لمن أنجبه، إلى بلد بعينه، هو بلده، الذي سيحمل جنسيته، وينسحب عليه بالضرورة جميع ما يلتصق بهذه الجنسية ويترتب عنها، تظل لصيقة به أحب أم كره، من المهد إلى اللحد. علينا أن ننظر إلى الحجم الفضفاض لهذا الجلباب بما يحتوي من جلابيب أخرى، متوسطة أو صغيرة، حسب تقديرنا لها، وبالأهمية التي يمكن أن يوليها إليها كل طرف، اجتماعي أو ثقافي. يأتي الدِّين، بلا شك، بالنسبة لمجتمعنا الإسلامي على رأسها إلى الحد الذي لا يجوز معه أي نقاش، فأن تولد مغربيا أو جزائريا أو تونسيا، مثلا، فأنت مسلم بالفطرة وحتما، كان هذا في الماضي، وثابت في الحاضر إلى درجة أن المجلس العلمي الأعلى في المغرب، وهو هيئة رسمية تشرف عليها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية يجيز عليك الحد إن ذهبت خلاف ذلك، ونحن في الألفية الثالثة، وموقعون لمواثيق دولية عن حقوق الإنسان، المتضمنة لحق الاعتقاد (كذا). وأنت بعد هذا وذاك، وتبعا لهذا الخلل أو العسف، سمِّه ما تشاء، تعيش، ستعيش تحت نظام حكم يتمثل ازدواجية السلطة الوضعية والدينية، فيما يعطي لنفسه في العالم الخارجي صورة الحداثة والليبرالية والحرية في عديد وجوه، بل ويتقيد بها دستوريا، أليس كذلك؟ ! قلنا كان هذا في الماضي، متجذر في الحاضر، والظاهر لن يتزحزح غدا.

٢ـ٣ألحِق بهما جلابيب اللغة والعادات والتقاليد وإجمالا كل الموروث الثقافي، ما كان، وما تترعرع في ظله، وتتربّى في فيئه أو هجيره، وستُربي ذرِّيتك مستقبلا بغذائه تلقِينا وسلوكا وتلقيحا روحيا، عقيديا، إن سارت على هديه فهي صالحة، وإلا خرجت عن الصراط المستقيم، تسام خسفا هي(والعياذ بالله) طالحة (!). وإنه لمن الطريف، والمفارق في آن، أن تبدو المدرسة والجامعة والمؤسسات التعليمية

والثقافية الملحقة بها، أو الموازية، ليس أكثر من واجهات ومحافل لتناول أطباق ووجبات هي المقررة للاستهلاك، الصالحة لكل زمان ومكان، رغم تبدل الأزمنة، تجد من يحملها إليك ويقررها قسرا حتى ولو بدلتَ الأمكنة.

٣ـ خُذ هذه الجلابيبَ كلها، نسيجَها ونسّاجَها، مهما تباين وتلوّن واحدٌ، أو توأمٌ أو مُتشابه، وإن وجدتَ خيوطا مغايرة أو تفصيلا مُباعدا للطراز، فهما في النهاية للتحلية والتزيين لا للخرق والتجديد الخلاق، لأنه لا يصح إلا الصحيح، أي الأصل، الأصيل، النموذج؛ هذه هي الهُوية. بعبارة أخرى،أنت أمام قوى ومكونات ومحددات وحدود، وتعبيرات وتمثيلات، وتصورات، بل وحتى تهيؤات من قبيل الأحلام والتمنيات، وربما الهلوسات،(أرضية وغيبية) هي من، ما يعيّن من أنت، وما ستصبح تقريبا، وعلى أيّ نحو ينبغي أن تفكر وتنهج في حياتك، أفلحتَ أم خبت، ما همّ. وأنت، ثانيا، أمام ما يتعداك فيما يدّعي التطابق معك، وذاتك مأواه وكيانك مستقرُّ معناه ومجال فعله طردا وعكسا، فأنت، والحالة هذه، وبالمصطلح الفلسفي، مغترب عن نفسك، مستلب لما هو سابق عليك، إلى حد استلاب يتجاوز الوعي في تعاليه. وثالثا، فالأمر وهو مادي، شيء، قابل لأن يتشخص، في الآن كتلة أو مفهوما، ثقافة مجردة أنتجتها جماعة، هي لحمتها وسداها؛ الأمر يتعلق بهوية جماعية وليس إطلاقا بهوية فردية بالمعنى الذي يسمح بتعريف الأنا، ويؤهل ذاتا بعينها، الذات الفردية، ولها بعد ذلك أن تتعدد وتتشبّع وتتفتح وتتنوّع لتغدو ذاتا إنسانية قد اشتُقت من غنى معارف العالم وثقافات البشرية في خوضها للحياة، لكنها قبل هذا وذاك كفيلة بقدراتها الذاتية كهوية فردية، وأنّى لنا !

٤ ـ الهوية في الأصل تخص ذاتا بعينها، وهو ما يستوجب التعريف، قبل أي تأويل، أو إسقاط قبلي. وهو ما يثبته، مثلا، معجم لالاند (المعتمد للمفردات التقنية للنقد والفلسفة،) وقواميس غيره، ينص في مادة"Identité"،خصوصا على:" ما يميز شخصا ما، فرداً "(Individu) وأنه هو نفسه في كل أوقات عمره، ويتعين هذان المعنيان تحت تسمية" الهوية العددية،أو الرقمية"(Identité numérique) مقابل الهوية النوعية أو الخصوصية (Qualitative ou spécifique) التي تتمثل في طابع مادتي تفكير، متمايزتين في الزمان والمكان، وإن تضمنتا خصائص متماثلة. وبصرف النظر عن تعميق المصطلح كمفهوم فلسفي(عند ليبنز، خاصة) فإن ما يحتاج إلى تأكيد هو إثبات التعرف على ذات Identité du moi)) وعلى هويته القانونية (Identité juridique). أما التعريفات الأخرى فهي ملحقة، وهي إما تكميلية، أو بالأحرى تخصيصية، أي تختص بحقل بذاته، المجتمع، السياسة، القومية، ومن ثم تنتج جملة معان أو مضامين، إذ تنصرف إلى تعريف الهوية الفردية،أو خلق الأنا،نظير ما نجد عند جان كلود كوفمان، في كتابه: "l'invention de soi- une théorie de l'identité " مقابل الهوية الجماعية، وتمتد هذه في الآفاق الاجتماعية والوطنية والقومية والتاريخية، ويمكن سرد عشرات المصنفات عن

هذه الآفاق في تآليفها المعنية، وهي من أسف تهتم بالدرجة الأولى بالقضايا والأبعاد الإيديولوجية والقومية، أكثر من أي شأن، بل وعلى حساب الجوانب الثقافية، وحيث تُحصر الثقافة في التراث بمفهوم جامد، أو في الأدب بصفة عامة، وليس كإبداع خلاق ومفيد للإنسان، تعبيرا عن حريته وخياله وتفتحه في مجتمع حر.

٥ـ نحن هنا بين حدين من التعريفات، يشتركان في جذر الكلمة وفي المعنى الأصلي، ويتفرقان في مراميهما: الأول مخصوص بالأنا (L'égo)، ذو منشأ وميل ذاتي، وبمنزع فلسفي، والثاني محكوم بالتوجه نحو فكرة الجماعة ومصلحتها وسياستها، وإن شئنا التصنيف قلنا إننا بين تقاطب وجودي وإيديولوجي، رغم أن الفصل بينهما ليس إلا شكليا نظرا لرغبة تحقيق الذات في كلا الوضعين (فردية) و(جماعية) ولأن تحقق الأولى، الذي علمتنا إياه فلسفة الأنوار، وتاريخ الثقافة الحديثة، هو ما قاد وتبلور في صيغ وإيديولوجيات التحرر الجماعي. لا حاجة للتذكير بأن من حوافز وتجليات الثورة الفرنسية، تجسيد حرية الفرد والدفاع عنها في مواجهة ما مثلته الكنيسة والإقطاع والاستبداد الحاكم من تسلط وكبح لها. هو، إذن، تسلسل تاريخي أفضى إلى نقل قضية الهوية، إن صحّ، من الجزء، أو الأصل الأم، أي الكل، بشبكة أغصانه وفروعه، الممتدة نحو مختلف مناحي الحياة، بما يحقق مصلحة البشر ويعبر عن طموحهم، وبالدرجة الأولى تعطشهم الدائم والمشروع للحرية التي هي الأداة الأولى لصنع شخصيتهم، بعدد من المقومات الموضوعية، وانتزاع حقوقهم أو الحفاظ عليها في عالم محكوم عبر التاريخ بالصراع والهيمنة، وتعتبر الشخصية الوطنية أو القومية (ومثله) عماده الأول، بضمان تعزيز الهوية أو الدفاع عنها، أو الكفاح لتحققها.

٦ـ لا تكتمل هذه الملاحظات الأولية عندي إلا بالإشارة إلى أن الحديث في هذا القطب الثاني، وهو يتخذ مظهر المنزع الإيديولوجي، أو إنه أضحى متبلورا عليه في المرحلة الراهنة بصفة خاصة، مرتبط حتما بالمسألة الثقافية، أي حيث تمثل الثقافة مكونه الرئيس، وتحضر رأسماله الأقوى، فنتحدث عن الهوية الثقافية لشعب من الشعوب، ونحن لا نعني الثقافة، أي المعرفة، وخبرة النخبة والعلماء، وحدهم، ولا الإبداع والفنون فقط، وإنما مجموع الخبرات التي راكمها شعب أو مجموعة بشرية في تاريخها، وشكلت حزامها المعرفي عن نفسها وبيئتها وسلوكها وصولا إلى معتقداتها وهواجسها، موقع الدين والأساطير والحكايات، الخ. وهنا يمكن أن نجد أنفسنا أمام ضربين من تعريف الثقافة، الفرنسي المستوحى من فلسفة الأنوار، يحددها في ما يميزنا عن الطبيعة، ويحيلنا إلى بشريةhumanité مشتركة تنحو صوب تقدم مضطرد، بينما يحيل التعريف الألماني إلى طرق العيش بأنماطها المختلفة، ويأتي التعريف الإنجليزي مسوّغا للثقافة الرفيعة الأوروبية بالأساس، أي الأعمال الكبرى. ولا شك أن التعريف العربي وهو ذو طبيعة نخبوية، حيث ينظر إلى الثقافة كمنتوج ومجال اختصاص للخاصة

لا العامة، ينزع رغم هذا نحو الشمول، فلا يضيّع الحِرَفَ وأنماطَ العيش ومهاراتٍ شتى، كما يمكن استقاء ذلك من مقدمة ابن خلدون في فصول محددة. ولعل أفضل تعريف جامع ومتنوع هو ذلك الذي وضعته منظمة اليونسكو، تنظر فيه إلى الثقافة بوصفها تتعدى نطاق الفنون والآداب، لتراها بمثابة مجموع العلامات المميزة، الروحية والمادية التي تطبع مجموعة اجتماعية بعينها.

٧ـ يأتي هذا التعريف في ديباجة التصريح العالمي لليونسكو حول موضوع التعددية الثقافية (٢٠٠١)، وإلحاقا باعتراف وحرص المنظمة الدولية في ميثاقها التأسيسي على أن "تضمن الدول الأعضاء خصوبة التنوع في ثقافاتها، وتيسير التنقل الحر للأفكار، واحترامهما، والاعتراف بالكرامة المتساوية لجميع الثقافات والحفاظ على تراثها..." وخصوصا الدفاع عن التنوع الثقافي، متمثلا في "تعايش منسجم وإرادة العيش المشترك السلمي بين أفراد وجماعات من آفاق مختلفة في البلد الواحد"؛ وب" الدفاع عن تنوع خلاق، تتعدد فيه أشكال تعبير الثقافات عن نفسها" وهو ما يتطلب، حسب التصريح المذكور إقرارا ل"التعدد الثقافي" ينص على حقوق الأفراد والحريات الجوهرية (حقوق الأقليات) وإلى وضع مسألة التنوع في مرتبة " تراث مشترك للبشرية" والدفاع عنه قضية إيتيقية كجزء من كرامة الإنسان. من الواضح أننا هنا إزاء نقلة نوعية في مفهوم الهوية، لم تعد خالصة لوجه الثقافة وحدها، وتكتسي بُعدا إيديولوجيا غاية في الأهمية، فتقسمها عندئذ إلى شقين: قضية الهوية ، وقضية المسألة الهويّاتية، هذه الأخيرة شأنٌ حديث العهد ومقترنٌ بتطورات سياسية تاريخية متلاحقة عرفتها نهاية القرن الماضي وتتواصل في العقدين الجديدين لهذا القرن بحدّة ومركزية أكثر، في اتجاه إعادة التشكلات الاجتماعية والوطنية وبتعديل كثير من المفاهيم الثقافية، بما يستوجب التوضيح في كل مرة، لنعرف عن أي شيء نتحدث بالضبط.

٨ـ لابد من الإشارة في هذا السياق إلى أن طرح مسألة الهوية بشقيها، والشق الثاني بصفة خاصة، كان ويظل رهنا بشروط تاريخية ـ سياسية ظهرت أولا في المجابهة مع العالم الأجنبي الغربي، الذي فرض نفسه ونموذجه على الآخرين المستضعفين بالقوة العسكرية والتفوق العلمي والصناعي، فأخضعهم وأذلّهم ونبذَ ثقافتهم ولغاتهم، وهكذا جاء طرح الهوية، بناء على اضطهادها ضمن نزع السيادة ككل، وبواسطة الأداة الكبرى الفتاكة التي هي الهيمنة. وقد مثلت المرحلة الاستعمارية أجلى مظاهر هذه الهيمنة في أصعدة شتى معلومة، تبعتها المرحلة ما بعد الاستعمارية التي كرّستها مع تلطيف حدتها وتبديل لبوسها، مع الإبقاء على أهدافها الإقتصادية واستراتيجيتها الثقافية، تُرسِّخ على المدى البعيد مصالحها. ثانيها، أن طرح هذه المسألة مثَّل في حد ذاته وضعية الدونية شكت منها الشعوب المستضعفة وتشكو، وقد ظهر الاستعمار متسلطا، وثقافته يفرضها الأعلى والأسمى، وفي قلب هذه المرتبة يثوي مضمون الثقافة بين طرف محتل ومهيمن(الغربي) يملك المدنية ومفاتيح التقدم، وطرفٍ

مُهيمَن عليه (الجنوب، بإطلاق)، ثقافتُه موسومة بالتخلف، وإنسانيتُه بالازدراء، سيادتُه منزوعة، وكرامتُه مُداسة، ويتخبط في الجهل والظلامية بأشكال. بعبارة أوجز، أدق، فقدُ طرح سؤال "من أنا؟ " مقابل واستجابة لتحدي الصورة الباهرة، المتفوقة، لآخر قُبالتي. هكذا يتضمن طرح القضية من البداية ازدواجيتها، بمعنى سكونيتها في حالة الاستقرار والأمان، وانتفاضها لدى خطر يحيق بها، بذا فهي سالبة من جهة، وموجبة من جهة ثانية. ثم أعيد طرحه على صعيد التساؤل عن سبل وكيفية تحقيق النهضة للخروج من نفق التخلف، وتقاطعت الإجابة/ الإجابات دائما مع الآخر الأجنبي، هو نفسه الذي سيغذي حضوره من هذه الناحية، حين تنقل قضية الهوية إلى المسألة الهوياتية(La question identitaire)،أي إلى صعيد الحقوق الفردية والكرامة الإنسانية، والحق في التعبير وحقوق الأقليات، والتعددية الثقافية، الخ..

٩ـ وأخيرا، وليس آخرا، نعلم أن مسألة الهوية، ودائما بشقيها، قد عادت إلى الواجهة بإشعاع وحِدَّة غير مسبوقتين، مع اليافطة الكبرى التي تظاهرت بها القوى الغربية، الاستعمارية والإمبريالية أمس، والأقوى اقتصاديا وصناعيا وثقافيا دائما، رفعتها في وجه العالم البلدانُ الأنغلو سكسونية،الولايات المتحدة أولا، باسم Globalisation، واالفرنكفونية باسم La mondialisation، ونقلناها، نحن العالم الدوني، المراد عولمته، نقلنا كل شيء تقريبا، باسم العولمة، قد تجد لها أصلا بريئا في التعددية الثقافية، تمتد جذورها إلى دراسات مالنوسكي وليفي ستراوس وغيرهما ممن عرّفوها ك:" مجموع الخصوصيات المكونة للهويات، مرتبطة بالدين، والإيتيقا، والجغرافيا، واللغة". وهي عند البعض شكل جديد من أشكال الهيمنة، وعند آخرين تعيد المسألة إلى صدارة الاهتمام بما تشكله من تهديد لهوية الشعوب، من ناحية التذويب والاكتساح وإلغاء التنوع باسم التنوع نفسه، كما ينظر إليها البعض بأنها تهديد للهويات الوطنية، إذا افترضنا أن هذه الهويات متماسكة حقا، وحرية التعبير مضمونة فيها، وقادرة على تدبير أزمة الأقليات، معضلة الجنوب الجديدة.

القسم الثاني

١٠ـ سأقول إني بعد أن عرضت هذه العناصر والمعلومات الخاصة بقضية الهوية، وأنا أحاول استيعابها، يمكن أن تنطبق عليّ أو على غيري بكيفية نسبية، وأزيد قائلا، وقد وعيت بطريقة ما أني على غير وئام مع المحيط الذي أعيش فيه، أو لمجرد الرغبة في تغيير المكان، انسجاما مع المثل المغربي القائل:" تبدال المنازل راحة" واقتناعا مني بأن: "أرض الله واسعة" كما يحلو لزعيم مغربي أن يستشهد بسورة النساء في غير سياقها، يخاطب بها كل من يخالفه الرأي حول رقعته السياسية ليتفرد بها من دون العالمين، لا

مناص لهم من الهجرة، سيهاجرون، قد هاجروا، تعددت الأسباب، أغلب من يهاجر من أبناء الجنوب يفعل بسبب ضيق ذات اليد، لينقذ نفسه وعشيرته الأقربين من الفاقة، ومجموعةٌ بحثا عن عيش أفضل، في أمكنة صالحة للعيش حقا، وفئة قسرا، هاربة من الاستبداد، تطلب الحرية والكرامة، ولو في بلدان الناس، لذلك لا توجد هجرة واحدة، ولا مهاجرون متجانسون، يمكن وضعهم في خانة واحدة، ولا التعامل مع وضعهم بطريقة نمطية، وحتى فولكلورية، كما تفعل هيئاتنا الرسمية في المغرب، ولهذه من هذه الناحية حكاية بل حكايات مثيرة حقا، قد تشيب لسردها الولدان.

١١ـ تريد هذه الهيئات أن تلصق بهم هوية واحدة، جامعة مانعة، كونهم مهاجرين، وقد ظلت تتخبط زمنا في التسميات، فتارة هم" المغاربة المقيمون في الخارج" وتارة "الجالية المغربية" وأخيرا أظن أن التسمية المتبناة لهذه "البضاعة" هي "المغاربة القاطنون بالخارج" كيفما كانت التسمية، فهناك الجلباب الفضفاض الذي ينبغي أن يلبسوه، أو يظلوا يرتدونه إلى أن تطويهم اللحود، مهما تغيرت الأمكنة والأزمنة. لكن لهؤلاء القوم وجهة نظر أخرى، وعلاقتهم بقضية الهوية من طينة مختلفة، تنبع من ظروفهم هم، ومن وحي مجمل الشروط الموضوعية التي تنتظم فيها حياتهم الجديدة وتنظمها، نعتبر ذا الموضوع الخصوصي الذي أحب أن أركز عليه بمشاركتي في هذه الندوة الهامة، وأسجل بشأنه بعض الملاحظات والتأملات، هي مزيج وثمرة خبرة وتجربة شخصية. هما في الحقيقة يتكاملان، وتوفرهما معا ضروري لرجاحة الرأي وجدارته، فلا أعتقد أن بإمكان أحد، مهما بلغ من الحصافة والنزاهة العلمية أن يطرق مسألتي الهوية والهجرة إن لم يتحدث من داخلهما، من قلب مكوناتهما وإشكاليتهما، وهما مسألتان لا يمكن تفويضهما إلى حفنة موظفين، أو خبراءَ أو وصاةٍ، لأن في الأمر حياة إنسانية وحقوقا وكرامة ومصيرا شخصيا. كلمات خفيفة على اللسان، ثقيلة في ميزان الهوية التي إما هرب منها المهاجر أو انتقل إلى فضاء جديد ليبدلها بأخرى، أو ربما يختبرها، اللهم أن يتجذر فيها عوْدا على بدء. ليس ثمة رأي جازم في هذه القضية، ولا إمكان لوضع تصنيفات وإصدار أحكام في مجال متململ تتحرك وتتنقل فيه الأجيال والثقافات وتتبدل الرؤى، أي أنه نقيض للجمود والسكونية التي ينطلق منها ويتشبث بها رهط من الوصاة ممن يطاردون الناس بهوياتهم، وأضحت هذه حرفتهم.

١٢ـ كيف ذلك؟ لمحاولة الإجابة على هذا السؤال، وما ينضوي بداخله، سأفترض أن المهاجر(س) وقد انتقل إلى بيئته الجديدة (ن) بدأ يتعرف على حياة مغايرة، معيشا، وعملا، وثقافة ووضعا سياسيا،الخ. ثم تدريجيا، وهو في هذه الإقامة الأجنبية تتفتح عيناه ووعيه وإحساسه على أمور مما لم يسبق أن عاينه في موطنه، أو تغاضى عنه، أو كان بعيد المنال. ثم إنه يصبح، وهذا خطير جدا، عرضة لتمزقات سيكولوجية، وأحوال درامية، سبقتها حالة إحساس بمهانة اضطرار مغادرة البلاد،

إحساس مضمر في الغالب، رغم الحبور الظاهري،وامتدادا منه إلى ذريته التي ستتراكم فيها أزمات شتى ذات خصوصيات. بوسعنا سَوْقُ عديدِ أمثلة، منها ما يخص الحقوق الفردية: كحرية التعبير والرأي؛ حرية المعتقد؛ حرية المرأة؛ الحق في التعليم، في الصحة، في العمل، في التنقل، وأخيرا حتى في الزواج المثلي. سيكتشف بالتدريج أنه يعيش في دولة محكومة بالحق والقانون، مبنية على المساواة في الحقوق وتكافؤ الفرص، وأن المواطن فيها مُقيّدٌ كذلك بواجبات مقابل التزامات من قِبل حكام منتخبين بطريقة ديموقراطية لا تشوب انتخاباتهم مظاهرُ التزوير وشراء الضمائر، وباختصار أن الإنسان يُعرّف كمواطن، وللمواطنة تاريخ وقوانين ومسؤوليات وحقوق. وعليه بعد ذلك أن يتحمل وضعه ك"مهاجر" ويحسن تدبير هذا المأزق.

١٣ـ ها قلاع سفينته التي يخوض بها معيشه اليومي الجديد تهتز، وها عصْفٌ ينفخ ريحا قوية داخل وخارج الجلباب الفضفاض الذي يرتدي، وسواء قرر أن يحتفظ به، أو يرتديه للمناسبات، أو يخلعه عنه كليا، فهي الريح، ولا يعود منذئذ يعرف كيف يمشي كما كان ولا يتذوق طعم الأشياء كالسابق، مهما اصطنع وادّعى وكابر. إنه ليس مواطنا بعد، وما هو إلا مهاجر، من عجب هي تسميةٌ مزدوجة المعنى والصفة والمحتوى، بين الضفتين، الجنوب والشمال: فمن حيث أتى، هو شخص محظوظ في نظر أهله وصحبه ومحيطه عامة، ولا أحد يُعنى بمن هو، بمشاعره، بتأثير مغادرته لبلده عليه، أي بغربته، هو محظوظ وكفى لأسباب مادية لا داعي للإفاضة فيها، وبالنسبة لدولته هو أيضا بقرةٌ حلوب، مصدر أساس لما يسمى جلب العملة الصعبة، هو الذي هاجر لإنه كان عاجزا عن ربح السهلة. وإلى حيث رحل، فهو ليس مواطنا، وليس إنسانا كاملا، إنه مجرد مهاجر، ومذ وصوله إلى مطار بلد الهجرة يقع (س) تحت طائلة نظرات مريبة من شرطي وجمرك الحدود، ومن سائق التاكسي، والجار في المترو والطابور في المخبزة والمعمل، والانتظار الطويل في قاعات ودهاليز غاصة، محبوسة الهواء، محدودة الكراسي، ليسوِّي بطاقة الإقامة(الكلمة المفتاح: Les papiers أو ستمشي لصق الحائط حتى تلقط)، أو لا قدر الله ليجدد جوازه في إحدى قنصليات بلده، وحيثما حل تشزره تلك العين بتوجس وازدراء. لم يصل بجسده وحده، ولا عاريا، بل مرتديا جلابيبه، أي حاملا هويته، المنضوية كلا وأجزاءً في ثناياها وجيوبها، والعين الشزراء لم تتقصّده كذات، قل إن ذاته لا تعنيها أو لا تبصرها قط، بل هويته التي ترى فيها سلفا، وبحكم تراكم تاريخ من العلاقات والصدامات، نقيضا لهوية الجسد الذي تنتسب إليه، والجهاز العصبي والفكري الذي يملي عليها النظر من منظور محدد. وفي الآن، نجده، وحسب نوعية ومحتوى الهوية التي يستبطن يرسل إلى العين نظرة بذاتها، مباشرة أو محرّفَة، ويشرع تدريجيا في إعداد سيناريوهاته، لو استطاع.

١٤ـ ترى المهاجر يصل إلى" دار الحرب والكفار" كأنما متربص ويحدس بطبيعة الاستقبال، يعلم

سلفا أنه قوة عمل للاستغلال، وانتقاله ـ في نيته الأولى ـ ليحسِّن وضعه المادي، وليتميز في ما بعد عن بني جلدته، لذا انتقالُه الأول مكانيٌّ فقط، بينما ينقل معه كل ما يملك:جسده،عقله، وروحه، وتاريخه الشخصي، والعائلي، والوطني، والثقافي، باختصار مجمل مكونات هويته، لذلك يحرص، مثلا، وأنا أتحدث عن المغربي أساسا،على حمل جلباب وبلغة (نعل) وسجادة للصلاة، ومصحف، وبرّاد الأتاي (الشاي) مع الصينية والكؤوس، وكاسيتات مسجلة للعيطة المرساوية والجبلية، وطاجينا وحتى منفاخا(رابوز)،فضلا عن أفاويه (عطرية) للطعام وحلويات من لبلاد (البلاد)، لا ننسى آنية لإعداد الكسكس الخ.. وسيكون أول ما يبحث عنه تعيين محل لاقتناء النعناع، جزر للحم الحلال، وتباعا المحلات التي سيؤثث منها بيته على الطراز المغربي الأصيل، ليثبت لنفسه، وجيرانه، وكل من قد يزوره من "لبلاد" ؛ "تمازيرت" أنه على المحجة البيضاء للهوية، لا يزيغ عنها إلا هالك (!)دعك من الفروض والأعياد الدينية وما إلى ذلك.

١٥ـ يفعل هذا وذاك، مبدئيا، ليقنع نفسه، هو وأهله، أنه منسجم مع نفسه، وأنه أقوى وسيبقى كذلك في مواجهة العالم الذي انتقل إليه، متسلحا بالدرع المتين لهويته، يحسبه صخرا وفولاذا. يسعى لتعزيز هذه المناعة كلما سافر في العطلة إلى بلده الأصلي، فيقبل على الأطعمة المشتهاة،والتنقل في أماكن الذكريات، وصلة الرحم مع الأقارب والأصحاب، وتوزيع الهدايا والهبات ما أمكن، النساء خاصة يتبرجن زاهيات، متباهيات، يكدن الغيظ متعمدات، وما هن إلا يعوضن عن" حقرة" مزدوجة، من قبل الداخل، مضمرة، والخارج حيث هم وليسوا، جهيرة، حد التشهير والعنصرية. وفي كل رحلة، ومع توالي الأعوام يشعرن هن والأزواج، أنه بالرغم من التمسك بالعروة الوثقى للهوية، فإنهن، إن الآصرة تتحلل، وأنهن صرن، صاروا ينظرون من علٍ إلى من تركوهم هناك تحت، هم أصبحوا بأوهامهم فوق، أن عيونهم تتبدل، هي وأذواقهم وأفكارهم، وألسنتهم، والخرق شيئا فشيئا يتسع، وما كان قلعة حصينة يتعرض للشرخ من كل جانب، وها هو يقين الهوية الثابتة قد اهتز، مثل أي إيمان حقيقي، رغم أن هذا المهاجر يواصل التمسك بشعائر الدين(صيام رمضان، والامتناع عن أكل لحم الخنزير، فقط) أظن أحيانا من باب الصمود والتحدي لاسترجاع اليقين وليس الإيمان بالضرورة، وسيبدأ في الإحساس بالتنافر بين معيشه الجديد وموطنه الأصلي، وستتخذ تعبيرات هذا التنافر أشكالا شتى لا مجال للحديث عنها، يكفي القول بأنها تجعلنا نستخلص بأنهم، ونحن برفقة وضعهم الصعب، سيدركون بان حياتهم (هويتهم) تتغير، من غير أن يكونوا قد امتلكوا أي هوية بديل، سينتابهم الإحساس، ويتفطنون، مرة كتوبيخ ضمير، بأنهم تخلوا في الحقيقة عن هويتهم منذ اللحظة التي وضعوا رجلهم خارج الحدود، وينتابهم ذعر داخلي لن يفارقهم، وسيظل مصدر إزعاج ممض لهم ولأبنائهم من بعدهم، كونهم التحقوا أو انضووا بوضع(Statut) غريب، هجين إسمه

(Résident étranger)؛(مقيم أجنبي) كما هو مثبت في بطاقة الإقامة، إثر الحصول عليها بعد جهد جهيد. وتدريجيا، سيفقد الآباء، والأمهات، أيضا، بطبيعة الحال، كثيرا من السلط والمعنويات المتوارثة، المميزة لهم في بلدهم الأصلي، كامنة في عمق الهوية المعنية، ليس بسبب وجودهم في بيئة أجنبية حسب، بل لأن كل قيمة لهم هنا مكتسبة من وظيفتهم كأُجراء، أي خارج كل رمزية ثقافية عُرفية واجتماعية بدلالاتها المتوارثة، وهم بعد أن يفقدوا سلطة السيطرة على نسائهم، تهتز بقوة مركزية سلطتهم الأبوية، كما في البلد حيث الأب سرمدي لا ينازع في حياته على الأقل، بل ويبقى أيقونة حتى بعد مماته، ويستيقظون ذات صباح ليجدوا أن البنين والبنات اللائي جربوا أن يفرضوا عليهم مرجعيات السلالة، بوصفها وحدها الشرعية وضمان القرابة، باتوا يسبحون في فلك غير فلكهم، وهم خارج السيطرة. يُنظر في هذا الصدد إلى البحث الهام: (F. Benslama et G.Grand Guillaume. Transformation de la figure du père paternel_ in Le Père , Métaphore paternelle et fonctions du père :l'interdit ,la filiation et la transmission. Donoel. ١٩٨٩, L'espace analytique.).

لا يعني هذا أن هؤلاء الأبناء، قد حصلوا على القدرات والممكنات الكفيلة بتوفير هوية مستقلة، منفصلة، ومنبثقة من بيئتهم المحلية التي وُلِدوا فيها، كما لا يعني إمكان اعتمادها هوية بديلا مقابل القديمة، السابقة لآبائهم، وإنما نحن أمام جيل من أبناء المهاجرين يتشكل في ضوء تكوينين ومحيطين وثقافتين إن لم تكن أكثر، بل يجب التريث طويلا قبل أن ننعت هؤلاء بأي صفة ونلصق بهم أي ملامح، فالهوية وهي تبدو حالة متحصلة، كما لو بالفطرة أو شأنا بدَهيا، يختلف ميراثها وتلقيها في حال الانتقال إلى محيط أجنبي، حيث تتعرض مدلولاتها، من ناحية لتحدياته، وتُمتحن بالتساؤلات والمرجعيات النقيض، ومن ناحية أخرى، للذات الفردية التي يفترض أن تستوطنها، وهم هؤلاء الأبناء، سواء ولدوا في بيئتهم الأصلية وترعرعوا في العالم الأجنبي، أو مسقط رأسهم في هذا الأخير وبلغته يتكلمون، وفي أجوائه ينمون ويتعلمون ويحلمون، وهم في الوقت على غير ما يرام.

١٦ـ ليست الهوية جلبابا جاهزا وقابلا لأن يرتدى في أي وقت، وحسب كل مقاسDu prêt- à porter كما تصور آباء أرادوا أن يلبسوها لأبناء لم يبقوا نوعا ما أبناءهم، ولا هم يفهمون المسألة ويتعاملون معها بالمفاتيح المعتادة غالبا عند خبراء سوسيولوجيا المؤسسات الرسمية، والجامعية أيضا، تبدو وهي تتبالى، بعد مضي ردح من الزمن على استعمالها، استهلاكها، من قبيل الإجتثات، أي الإنفصال عن الجذور Le déracinement ، ومسعى الإندماج L'intégration،أضف إليهما الاختلاط بأنواعه، والثقافي خاصة Le métissage كانت فترة حكم متيران مجال اختبارها الأول، بهياكل وخطاطات اتجهت إلى الاستيعاب والتأطير الشمولي والنمطي أكثر من فهم القضية كإشكالية ميسورة الحل لمجرد

اقتراح حلول ظرفية أو مادية عابرة، فيما زادت الأوضاع الاقتصادية الصعبة في المجتمعات الغربية، وهي تستفحل اليوم، من تعقيدها. جيل لاحق ضاقت به الجلابيب، وافتقد نفسه لا يجدها في أي مكان، فهو لا يعيش لا في مدينة ولا في قرية ولا وسط مجموعة متجانسة وإنما في تجمع سكني، ولذلك ينعتون ب:" Les zonnards" ـ طبعا، نحن نتحدث عن الأغلبية الساحقة، القابلة للنمذجة ـ وهي لا في المركز ولا الهامش،هي في لاـ مكان، ولم تستحق من الحاكمين غير أداة التشحيم والتنظيف الخاصة بتنظيف هياكل السياراتLe karcher حين اتجه الرئيس السابق ساركوزي إلى منطقة(لاكورنوف) الآهلة بالساكنة من اصل مغاربي وهدد شبابها المنعوتين بالمنحرفين، بعد أن استقبلوه بالتشنيع، بأنه س"ينظفهم" (Nettoyer au karcher)وردوا عليه:" إننا لسنا حيوانات، لسنا قاذورات، نحن آدميون!" . فرنسيون، أو نصف فرنسيين، أو أجانب، إنما رأس النظام وأتباعه وثقافتهم لا يريدونهم، فينفونهم إلى اللامكان، اللا هوية، هويتهم الوحيدة المتاحة، بعد أن ضاقت عليهم جلابيب الأهل، ولمّا يستوعبهم بعد اللباس الغربي الجديد، حسبوه معدا في كل وقت ولجميع المقاسات.

"الزوناريون" مضطرون لصنع هويتهم بأنفسهم، ولصوغ الثقافة الممكنة، ثقافة العرب والسود والصفر والخلاسيين، لغوية ومعرفية وذوقية وصورية ومسلكية، تُهجِّن وتخلط وتعيد التركيب: في القاموس، والحديث، والخطاب، واللباس، والذوق، والمشي، والإبداع شعرا ونثرا وغناء(الراب، السْلام)، هم مادة التنوع الثقافي بالنسبة للمجتمع لا الباحثين عنه وبهم، بإبداعهم، وطريقة عيشهم، كمجموعات، وكفئات لا نمطية، يراد تنميطها، وإدماجها زعما في مجتمعات محكمة الإغلاق، ترغمهم على البقاء في الخارج، في منطقة المنفى، اللامكان، لتنتج الثقافة/ الهوية الخاصة بها، وهو مسلسل ممتد، متململ، منفتح دائما، صيروري، وبما أنه، عدا قوانين المواطنة الضرورية، فإنها لا تحفل بشيء، وهذه نفسها يتحداها هؤلاء المحالون إلى اللاهوية، فتجدهم، بعضهم، قد تحولوا إلى منطقة الإرهاب في بحث مستحيل عن اعتراف لهم في الأرض، وقد انسلخوا نهائيا عن تراث الأجداد، أو اعتنقوه بتأويل متطرف، فيما لم ينفذ إلى وعيهم مثقال ذرة من عقلانية محيطهم الجديد.

هؤلاء وآباؤهم، فضلا عن العوائق المحيقة بهم حيث يعيشون، أجانب أو مندمجين أو مهمشين، أو منفيين بشكل من الأشكال، يصر آخرون على مطاردتهم إصرارا عجيبا، وبمنطق يخصّ المطاردين وثقافتهم، والمرجعيات التي عنها يصدرون، أو ما يرسمون. إنهم سَدَنة الجلابيب، المكلفون بتعميمها على الخلق المغربي الأصل في مختلف الأصقاع والأزمنة، إلى أن يرث الله الأرض والجلابيب ومن يلبَسُها. ولكي أبتعد عن أي تجريد، فإن حديثي يدور دائما ويمتح من المجال السوسيو ثقافي المغربي/ المغاربي، وقريبا منه الإفريقي. فعندنا في المغرب ثلاث جهات تعتبر نفسها مسؤولة ومخولة للتفكير والتدخل وتدبير الشأن الهجروي، بشرا وأحوالا: مؤسسة الحسن الثاني للهجرة؛ الوزارة المكلفة

بالهجرة، ومجلس الجالية المغربية، ولهذه الجهات امتدادات ذهابا وإيابا مع وزارات وهيئات أخرى، تحشر رأسها حشرا في هذا الشأن كلما أتيحت الفرصة وبدونها. تنطلق جميعها، مبدئيا، من شعار خدمة المغاربة في الخارج، ورعاية مصالحهم، كأنهم أيتام ومحجورون، في فصل الصيف نسمع عن حملة لتوفير حسن الاستقبال في الموانئ والمطارات، وتوفير بعض الخدمات في الطرقات المسلوكة داخل التراب الوطني، حين تكون سالكة لا هالكة أو ب"حساب"(!)، وفي فصول السنة تتنافس على هؤلاء المهاجرين شركات العقار، لتبيعهم الرخيص والغالي وحتى الأوهام، فهم لا بد لهم من بيت في الوطن، فذا من شروط الحفاظ على الهوية المقدسة، ودليل نجاح مشروع الهجرة والمهاجر، وإلا أيّ خسران مبين. ثمة أيضا فِرق فنية وما في طينتها تتكبد مشاق السفر ـ ولا تقل تسترزق الله ـ لزيارتهم لتمتيعهم بالغناء المغربي الأصيل، حتى لا تفسد ذائقتهم بالألحان والرَّطانات الغربية، فهذا من شرط الحفاظ على الهوية، فالواحد منهم لا بد عائد، حتى ولو "على آلة حدباءَ محمول". لا بأس فهي حاجات ومصالح يحتاج الناس إلى تدبيرها، والمغاربة في وضعية الهجرة أو الإقامة في الخارج لا تنقطع صلتهم ببلدهم، وليس مِنّةً أن تقدم لهم خدمات ضرورية لدى انتقالهم في فترات العطل، وهم يشكلون رأس مال خطير لوطنهم.

١٧ـ تكمن المعضلة في أن تنتزع هذه الهيئات حقوقا ليست لها، وتفرض ذاتها وصية على من هم في تعداد شعب، وباسم ماذا؟ وبأي حق؟ لأنهم مغاربة مهاجرون، أو من أصل مغربي، هكذا بإطلاق. تكمن في أنها تلاحقهم لتُثبِّتهم في الجلابيب التي رحلوا بها، طوعا أو اتفاقا، ومنهم من واصل" سكناها" ومنهم من تخلى عنها، أو استبدلها بحكم عامل المحيط الجديد، المتجدد. وفي الحالتين، فهم مسؤولون عن وضعهم، ومحيطهم يزوّدهم، إلى حد بعيد، بما يمنحهم حق الإختيار، خاصة الجيل اللاحق فيهم، إبن التراب الأجنبي، ما تنفك الخيوط تنحل بينه وبين مسقط رأس آبائه. تصر الهيئات المذكورة وأمثالها وفروعها، الظاهر منها، والمسخر بتستر،على تصدير الهوية، هوية مفترضة، وحدها تعرفها وتعيها وتحدد محتواها ومقاييسها ومجالات امتدادها وحدودها في الأخير، في الدنيا والآخرة، معا. تتدخل في الشؤون الدينية، والبرامج والمقررات المدرسية، في المعتقدات والمذاهب، بضاعتها الثقافية جاهزة للتصدير، مقننة، مثل كل البضائع الموجهة إلى الأسواق الخارجية، مع فارق أن هذه الأخيرة قادرة على رد ورفض البضاعة في حال تلفها أو رداءة تلفيفها فقط، بينا لا حق لأقوامنا في الخارج أن ينبسوا ببنت شفة، كيف، وما صُدِّر لهم مدموغ بختم الهوية المقدس، " فبأي آلاء ربكما تكذبان"! ترى الوفود من كل مذهب ومشرب تشد إليهم الرحال، إما لتفقههم في الدين، أو لتلقنهم كيف أن حب الوطن من الإيمان، هم وأبناؤهم طبعا، وبينها من يتخذ له مكاتب للخبرة يغدق عليها الملايين، كي تضع المخططات الاستراتيجية لفهم هؤلاء الأقوام، وجعل وجودهم يصب أولا وأخيرا

في مجرى إفادة الوطن، وتنكبهم عن كل شر مستطير. ببساطة، جميعهم مهمومون إما بما يسمونه الحفاظ على هوية الجالية الغالية، وإما لكي لا تنفك عراها بالوطن الأب، والهوية الأم. هل ساءلهم أحد من أنتم؟ ماذا تريدون؟ كيف تتصورون غدكم؟هل ما أنتم وما تعتقدون وتفكرون به يقنعكم، أم تقترحون عنه بديلا؟ لا داعي لمثل هذه الأسئلة، فإن هذه الهيئات ونظيراتها متعودة على التفكير والتقرير بالنيابة، سواء بالتفويض أو الغصب، وهل هناك غصب أكثر من ادعاء تمثيل المهاجرين في برلمان البلاد من غير أن يمتلكوا حق اختيار من يمثلهم، ما هم بالحق أم بالباطل،؟ !

أما أنا، وليكن مسموحا لي التعبير بالصوت الشخصي مباشرة عن أنا عاشت في الهجرة ردحا من الزمن وتواصل، فصارت هي الحياة الطبيعية التي حياتها، ومن ثم انتفت عنها كل الصفات المسقطة عليها من خارجها، ولا تسمح لأحد أن يتدخل في هويتها، ووحدها تملك الحق في تقرير مصيرها إزاء بلدها الأصلي والمحيط الذي تعيش فيه، وكل العالم الذي يجاورها أو يُناددها ويتحداها، ولا تطالب سوى بأن يكف الدخلاء، الوصاة، عن حشر أنوفهم في ما تحتاج أن يكون وجدانها، ومعتقدها، وكيف عليها أن تعتنق تراثها، وتتسلسل في تاريخها، وتوجد في كيان الهوية المركب. في الخاتمة لا أجد أفضل مما قاله، كتبه فرانكتيين (أنظر: Bernard Hadjadj . Les Parias de la mondialisation.Paris. Présense africaine. ١٩٩٨.PII –P vIII):" إنهم لا يعرفون من أنا. هم جميعا، يلقبونني بازدراء، الساذج والبدائي،والمتشكك،واللاعقلاني. أما أنا المنبوذ، فأرفض رؤيتهم الثنائية والإختزالية ، هم الذين هيكلوا العالم وفق نمط إرهابي وعنصري، متضاد :خير/ شر/ ملموس/ مجرد؛ أنثى/ مذكر؛ حقيقي/ زائف.. إنني اتغذى من الحساسيات المتعددة لكل الكائنات المتململة بداخلي. الماضي والحاضر لا يوجدان بالنسبة للتعساء، ولا غدا عند من هم تجارب مخبرية لدى النظام العالمي الجديد . أنا المنبوذ، أحمل في جلدي المسلوخ كل آلام البشرية، وفي قلبي وأحشائي، كل نبض المستقبل". أما المثل الأعلى فهو ما رسمه إيمي سيزير في أمنيته الغالية:" بمعمور غني بكل الخصوصيات، بعمق وتعايش كل الأطراف الخاصة".

باريس في ١٠ـ٠٦ـ ٢٠١٣